

إطالة على كتاب : (نفحات الإعجاز / أبو القاسم الخوئي)

إطالة على كتاب :

(نفحات الإعجاز / أبو القاسم الخوئي)

إن الوقوف على كتاب (نفحات الإعجاز) يضعنا أمام المنهج الجدلي للإمام الخوئي (قدس) ، والذي تميز به في درس الأصولي والفقهية والرجالي ، ومما لا شك أن هذا الكتيب - الصغير في حجمه والكبير في محتواه - يدلنا على القيمة العلمية التي خلفها مؤلفه ، ويعرفنا على المنهج العلمي الذي اقتفاه في الدراسات القرآنية .

وتأتي قصة هذا الكراس الذي كتبه الخوئي وهو في سن مبكرة ، أنه وقع بيده كتاب في سنة 1912م بعنوان (حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) لمؤلف مسيحي يُدعى (نصير الدين الطافر) مطبوعة بولاق بمصر ، والكتاب كما هو واضح من عنوانه يتضمن هجوماً ملفقاً مليئاً بالادعاءات والطعن لتفنيد إعجاز القرآن ، والنيل من مكانته وقيمه عند المسلمين .

إشارات سابقة لباحثين :

وقد أشار لهذا الكتيب .

١- الشيخ عبد العظيم الزرقاني ، بقوله : " ... لقد اطلعتُ على رسالة خبيثة أسموها (كتاب حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) فوجدتها قد حملت من الأكاذيب والأراجيف ، ومن اللف والدوران ، أشكالاً

وألواناً في الصحيفة الواحدة ... " (مناهل العرفان ، ج ٣١٣/٢) .

٢- كما رد عليه الشيخ محمد رشيد رضا عند تفسيره لسورة الفاتحة ، تحت عنوان (معارضة نصرانية سخيصة للفاتحة الشريفة)(انظر : تفسير المنار ١/٦٩) .

٣- وأشار المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني - صاحب كتاب (الذريعة) - لبعض الردود التي خرجت ، مثل :

الاحتراز في رد رسالة حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز : آقا محمد إبراهيم بن آقا رضا رئيس التجار الأصفهاني المشهدي . طبع في طهران سنة 1342هـ (انظر ج ٢٨٤ص) .

خطوة الرد للإمام الخوئي :

وقد انبرى الخوئي لردع هذا التجرؤ ، الذي ينمّ عن جهل وقلة اطلاع في اللغة والبلاغة ، وقصور فهم في معاني الآيات القرآنية ، وكان رده - على حد تعبيره - تصدياً لـ"بعض المغرورين على عدوانهم بالأباطيل التي كثر بها الهياج في هذا العصر"(نفحات الإعجاز ص46) .

فشرع بمقدمةٍ أجمل فيها الحديث حول (عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثل القرآن) ، وألمح فيها لنقطة جوهرية في مسألة الإعجاز ، هي :

أن بلاغة القرآن التي تحدى بها العرب تنطوي على بعدين لا يمكن فصلهما ، هما :

١- المعاني .

٢- والألفاظ .

ولم يكن التحدي بالبلاغة في جانبه اللفظي والأسلوبي فقط ، فالبلاغة لا تطلق على الكلام في لفظه وأسلوبه فقط ؛ قال :

" لكنهم يعرفون [أي العرب] لا كغيرهم أن الذي يفتخر به ويتنافس فيه من ارتفاع قدر الكلام وبلاغته إنما يكون بمقدار مطابقته لمقتضى الحال الذي يتكلم فيه ، وجريانه على الوجوه اللازمة في ذلك ، لا بمجرد تزويق [تحسين] الألفاظ وتحوير العبارات ، وقد وجدوا القرآن الكريم يعطي كل مقام حقه من المطابقة لحقيقته ومناسبتها ... " ، لذا من أراد أن يعارض ، فعليه أن يخوض " في مواضع القرآن الكريم من الحقائق خوفاً ابتدائياً لا اتباعاً تقليدياً ... "(نفحات الإعجاز ص4-5) .

ويهدف الخوئي من ذلك :

١- أن يبين للقارئ الوهم الذي تأسست عليه ادعاءات المؤلف ، ويكشف بذلك قصور فهمه للبلاغة ، ظناً منه أن إعجاز القرآن كامن في عباراته وألفاظه ، ومن هذا يتضح ضعف المستوى العلمي واللغوي لصاحب الكتاب ، والقابلية الذهنية القاصرة عن فهم مراد آيات التحدي ، مثل قوله تعالى :

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَيْدٌ نَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [سورة البقرة 23] .

وقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) [قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَاعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] [سورة يونس 38] .

وقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) [قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُمْفِتَرَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَاعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] [سورة هود 13] .

وقوله : (فَلَا يَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [سورة الطور 34] .

فالم تأمل في هذه الآيات ، سيلاحظ أنها استعملت مفردة (مثله) ، والمماثلة تكون في التركيب الكلي للكلام في المعاني والبيان .

٢- بلورة الإشكالية المنهجية المتكررة مع كل زمن ، فيمن يحاول أن ينال من القرآن عبر ادعاء التناقض فيه ، أو إثبات خلل ما في بلاغته ومعانيه ، أو تجاوز جوانب الإعجاز فيه لإنزال مكانته

٣- فصل عملية الفهم عن عنصر النص القرآني .

فكل ادعاءات المؤلف هي عملية فهم ، وقد تعتري الأذهان عادة شبهات وموانع للوصول لمراد النص ؛ فكيف لو اجتمع فهم قاصر مع قابلية ضعيفة في اللغة ؟!

وقد كان الخوئي كثيرا ما يعلق على فهم المؤلف وذهنيته القاصرة عن أوضح القضايا العقلية واللغوية ، من ذلك :

١- " فإن توهّم (حسن الإيجاز) أن قد جاءوا بمثله [يعني عرب الجاهلية] واختفى علينا فقد أخطأ وجدانه (...). فاعتراف أهل اللسان بإعجاز القرآن حسبا دلّ عليه الوجدان أوضح دليل على إعجازه ، ومن لم يكن من أهل اللسان فهو عاجز عن إدراك ذلك فلا ينبغي له الخوض فيه ، بل يلزم عليه أن يتّبع أهل اللسان ولا يبقى هالكا في ورطة الجهل، أعادنا الله منه ومن الجهل بأنّ جاهلون والله الهادي إلى سواء السبيل " .

٢- " لا لوم على هذا الرجل إذا لم يعرف معنى البلاغة فتوهّم لنفسه أنّها عبارة عن تزويق الألفاظ وإن كان معناها فاسداً قبيحاً في مورده ، ومن تقهّم مثل تقهّمه جدير بأن لا يعرف أنّ البلاغة التي بها يعلو قدر الكلام ويتفاخر إنّما هي مطابقته لمقتضى الحال ... " .

٣- " هذا مع أنّ المعارض بمعارضته الرديئة لم يهتد إلاّ باتّباع أسلوب القرآن وتقليده " .

٤- " وأظنّ أنّ تعصّب (حسن الإيجاز) لا يدعه يفهم ذلك لكي يصدّق به فإنّ داء التعصّب عضال " .
(انظر ص 6 و11 و25 و33 من نفحات الإعجاز).

كانت خطة رده ونقده عليه في (8 نقاط) ، يمكننا إجمالها في محورين رئيسيين ، هما :

١- شبهات في الإعجاز .

٢- شبهات في البلاغة القرآنية

المحور الأول :

شبهات في الإعجاز /

تناول الخوئي الشبهات هذه في النقاط (1 ، 2 ، 3 ، 6 ، 8) ، حيث تناول الإعجاز من النواحي التالية :

1- عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن . حيث ادعى المؤلف : (أن القرآن لم يدع عجز البشر والناس عن الإتيان بمثله ؛ إلا على سبيل المبالغة) .

فبين الخوئي بأن هذا الفهم لا يتماشى مع بدهة ما تعرض له القرآن للإعجاز ، حيث أورد □ ذلك التحدي " في مقام الحجة والاستدلال ، وإثبات أنه [أي القرآن] كلام □ ووحى منزل على نبيه المرسل صلوات □ وسلامه عليه وآله ، ومن ثم صار عجز الشعراء والبلغاء - مع كثرتهم في تلك الأعصار - دليلاً قاطعاً على إعجازه " (نفحات ص8) .

وثمة فرق واضح بين لغة القرآن الصريحة في التحدي ، وبين ادعاء الكاتب (المبالغة) .

انظر صريح الآية من قوله تعالى : (قُلْ لَسْتُنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا وَكَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [سورة الإسراء 88] ؛ لترى أن مقصودها بعيد عن معنى (المبالغة) الذي يزعمه الكاتب .

كما أنه تطرق لشبهة وقع فيها في قضية عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن ، حيث قاس القرآن بكتاب إقليدس من ناحية اشتراكه - على حد زعمه - من ناحية أن لم يأت أحد بمثله ممن قبله وممن بعده .

وهو بتلك الدعوى يريد إسقاط مكانة القرآن في معجزته ، في أنه لم يعجز البشر ؛ بل لأن أحدا إلى الآن لم يأت بمثله ، وربما سيأتي أحد ويأتي بمثله ، فرد الخوئي قائلاً :

" مع أن عدم الإتيان لا يستلزم العجز عنه ، لو سلم أن لم يأت أحد بمثله سلمنا ، ولكن الذي يقبح - عند العقل - على الله تعالى إنما هو إظهار المعجز على يد الكاذب ، فلا يمتنع إظهاره على من لم يدع النبوة كذبا ، والقرآن إنما ورد في مقام الإعجاز والبرهان على النبوة ، فبمّ يرتبط هذا المقام بغيره؟! " (نفحات ص8) .

2- إنكار الإعجاز ممن التصق بالإسلام . وقد بين الخوئي بأن دلالة الإعجاز على الوحي هي من الأمور العقلية التي لا يضر فيها جهل أحد ممن انتسب للإسلام أو إنكاره .

خاصة أن القرآن اختص كمعجزة عن سائر المعجزات بظهوره لجميع من يعرف البلاغة في جميع الأديان ولجميع الأزمان ، بينما المعجزات السابقة مختصة بفئة محدودة في ذلك الزمان ؛ " غاية الأمر أنه بالنسبة إلى أهل اللسان بإدراكهم وبلا واسطة ، وبالنسبة إلى غيرهم بإخبارهم القاطع وإذعانهم المعروف " (نفحات الإعجاز 10) .

3- اقتصار الإعجاز في أنباء الماضي فقط .

وقد أوضح الخوئي أن هذه الدعوة واهية ، لأنه لو كان الإعجاز فقط في أنباء الماضي ، فإنه لا خصوصية للنبي في ذلك ، لأن أنباء الماضي متاحة لمن يسمع ويحفظ من أقوال المتناقلين والقصاصين في كل زمن .

ولعل ما جعله يقول ذلك حينما رأى القرآن يشترك مع الكتب السماوية الأخرى في نقل القصص ؛ لكن الخوئي بيّن بأن القرآن خالف تلك الكتب ، ومخالفته تعد تصحيحاً وتهذيباً ، لأنها صادرة عن وحي الله الذي لا تناقض ولا اختلاف في كلامه . (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَالْوَكَاانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّاهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) [سورة النساء 82] .

وَالْإِبْرَاهِيمَ (سورة آل عمران 41) . وقوله تعالى (وَإِذْ وَاَعَدْنَا نَارًا مَّوَسَىٰ ۖ أَرَّوْهُ بِعَيْنَيْهِ
لَيْلِيَّةً ۖ ثُمَّ ۖ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) [سورة البقرة 51] .

وقوله تعالى في أمر زكريا (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
النِّسَاءَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) [سورة مريم 10] .

وشواهد من الشعر والنثر كثيرة " (نفحات ص44) .

كما أنه قد أعطى أمثلة أيضاً في اللغة العبرانية في التوراة ، وفي الإنجيل أورد ما يفهم المدعي ،
بقوله :

" وإن أراد الاعتراض ، فعليه بإنجيله الراجح ، فإنّ إنجيل متى يذكر في الباب الثاني عشر / عدد 40
أنّ المسيح أخبر أنه يبقى مدفوناً في بطن الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال ، مع أنّ إنجيل متى
والأنجيل الثلاثة الباقية متفقة على أنّه لم يبق في الأرض إلاّ يسيراً من آخر يوم الجمعة ، وليلة
السبت ونهار السبت ، وليلة الأحد إلى ما قبل الفجر ؛ فأين تكون الثلاثة أيّام وثلاث ليال؟! فانظر
أخريات الأنجيل في دفن المسيح وقيامه " (نفحات ص45) .

ب / مخالفة العهدين .

حيث توهم كذب القرآن مقارنة بما فيهما ، ليقينه بأنهما هي الكتب المنزلة للأنبياء . ثم بين بإيجاز
:

" أن داخلية كتب العهدين تبطل كونهما كتب وحي وإلهام " (نفحات ص45) .

أي أن الناظر المتأمل في هذه الكتب المحرفة وما حوته من قصص وأخبار متناقضة ، وبعضها ينسب الكذب
والانحراف للأنبياء كافٍ في أنها محرفة ، ولا يتعمد عليها كميزان لكي نقيس عليها ونحكم بها .

هذا عن شبهات الإعجاز .

المحور الثاني :

شبهات في بلاغة القرآن /

وتوزعت في النقاط التالية : (4 ، 5 ، 7) . وتناول فيها :

معنى البلاغة في إعجاز القرآن ، وشبهاته الواهية في بعض بلاغاته .

ومن خلال ما استعرضه الخوئي من عبارات الكتاب ، تبين بأن تصورات المؤلف ومفاهيمه عن البلاغة لا تتناسب وأهل البلاغة واللسان .

فهو يقول في كتابه :

(يمكن عقلا أن يأتي إنسان بأفصح العبارات وأبلغها وأحسنها نظماً وهي تحكم بأن الـ شرير) .

وأوضح الخوئي أن هذه المقولة تدل على عدم معرفة البلاغة ، فهو توهم أن البلاغة عبارة عن تزويق الألفاظ وإن كان معناها فاسداً قبيحاً في مورده .

ويبدو أن هذا الوهم تسرب له من خلال ما في الكتب المحرفة لديه ، فقد أورد الخوئي نصوصاً من التوراة والإنجيل ، كان فيها المعنى فاسداً وقبيحاً ، عبر إلصاق فعل القبايح للأنبياء وتلفيق ما لا يليق بهم ، وقد نمق وأنق المحرفون هذه القصص لإخفاء معانيها المشوهة ، لكي يتقبلها العقل قدر الإمكان .

لذلك عمد الخوئي لعمل مقارنة بسيطة مع القرآن لتوضيح هذا الأمر . قال :

" فانظر إلى كلام الـ في جميع موارد وفنونه المختلفة ، وانظر إلى براعته فيها وبلاغته المعجزة بمطابقته لمقتضى الحال . وإن صدور هذه المقامات [يعني القصص المحرفة] وأمثالها من كتبه العهدين

الرائجين لأدل دليل على كذب أولئك الكتبة " (نفحات ص13) .

بعدها أوضح أن الاستناد في صدق الرسول إلى الله لهو من جهات شتى ، منها :

أ / عجز بلغاء العرب عن معارضة القرآن مع أنهم أهل الفصاحة والبيان ، وهذا كافٍ لأن يكون مصدر المعجزة إلهياً .

ب/ إذا كان في ادعاء النبي ما هو مخالف للعقل كالكذب والدعوة للشرك ، وتناقض أقواله ودعواه ، فالمعجزة تنتفي في هذا الفرض ، فقول الكاتب بأن الله شرير يدل على عدم النبوة وعلى أن المدعي كاذب في دعواه .

وهناك الشواهد الأخرى الكثيرة الدالة على فهمه القاصر وجهله باللغة والبلاغة ، منها :

١- تشبته ببعض التراكيب العربية التي استعملها القرآن ، مثل : (وردة كالدهان) (صلصال كالفخار) والتي استعملها العرب من قبل . واعتبر ذلك استقواءً ، ليقبل من بلاغته .

فقال الخوئي رداً على ذلك :

" ولا يخفى أن القرآن نزل باللغة العربية ، هل يمنع عليه استعماله للألفاظ التي استعملها غيره من العرب؟! وهل قال أحد : أن بلاغة القرآن وإعجازه إنما هو بمثل ألفاظ (وردة كالدهان) و (صلصال كالفخار) لكي يقال : إن هذا الإعجاز سبق به عنتره وأمية لو صحت النسبة لهما؟! " (نفحات ص42) .

وفي السياق نفسه تشبث أيضاً بما ينقله بعض علماء المسلمين من أخبار الآحاد في أن من القرآن ما نزل على لسان بعض الصحابة .

فرد الخوئي عليه :

" أن ذلك لو صح لم يضر بكون القرآن وحياً ، لجواز أن تكون مصلحة الوحي والتشريع وحكمتها قد اقتضت أن ينزل الوحي بعد ذلك القول من الصحابي " (نفحات ص43) .

إضافة إلى تنبيهه إلى أنه لا يصح الاحتجاج بقضية إلا بما هو مسلم بها بين المسلمين ؛ وهذه مما لم يتسالم بها ، فضلاً عن نفي حدوثها من قبل جملة من المحققين .

٢- إبطاله ما توهم أنه دليل على عدم بلاغة القرآن ، وقسمه إلى قسمين :

أ / قسم جعل فيه ادعاءه دليلاً على قوله . وأتى فيه بشواهد ادعى التنافر فيها مثل قوله تعالى (بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ * مَا الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ) [سورة الحاقة 1 - 2] .

وادعى الغرابة في لفظة (الكوثر) ؛ لأن النبي فسر المراد على النحو الكلي ، فاعتبر ذلك غريباً ... وغيرها من الأمثلة . وأوضح الخوئي أن سوق هذه الإدعاءات تدل على قلة اطلاع في لغة العرب .

ب / قسم فيه دلالة على عدم فهمه للكلام . ومنه توهمه في مخالفة القياس في قوله تعالى (وَاللّٰهُ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسُفِّجَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ وَرَزَقْنَا بِهِ الْأَشْيَاءَ الْحَيٰوةَ) [سورة نوح 17] . فقال أن القياس الصحيح هو : إنباتاً .

فرد الخوئي :

بأن المراد في دلالة الآية ليس المصدر ، إنما " المراد منه اسم العين لمساواة أحوال الإنسان لأحوال النبات في نموه وأطواره في البهجة والذبول " (نفحات ص22) .

٣- ومن قلة فهمه أيضاً مجاراته الرديئة لمعارضة القرآن عبر تنميقة اللفظي الأسلوبية ، طناً منه أن هذه المعارضة مثلية للقرآن ، وقد اكتفى الخوئي بالتعليق البسيط لأنها في حد ذاتها تدل على ضعفها .

٤- بعدها انتقل الخوئي ليعلق حول (التكرار في القصص) التي أشار لها صاحب الكتاب بزعمه أنه منافق للبلاغة فقال موضحاً ومبيناً :

" وإن كان المعترض يتعرض لتكرار القرآن لقصمه ، فهل يخفى على ذي المعرفة محل ذلك من البراعة والبلاغة وبيان القدرة على إيراد القصة حسب مناسباتها بعبارات مختلفة كلها راقية في مقامها من دون

تناقض ولا اختلاف جوهري ، لا كما وقع في الأناجيل من التناقض والاختلاف الجوهري الكبير الكثير في قصصها التي تكررت فيها ... " (نصفحات ص28-27) .

5- ومنه ادعاؤه ضعف التأليف والتعقيد في قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَامًا عَبْدَهُ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا) [سورة الكهف 1 - 2] .

حيث توهم أن (قيما) حال من الكتاب ، والواو في (ولم يجعل) للعطف .

فأجاب الخوئي :

مع غفلته عن أنه لا لزوم في هذا التحكم ، بل تكون الواو حالية ، و (قيما) حالاً بعد حال ، أو حالاً من ضمير (له) . ومعنى القيم : كونه قائماً بأمر العباد في المعارف والشريعة والإرشاد والإنذار ، كما يقال : قيّم المرأة وقيّم اليتيم وقيّم القوم . (نصفحات ص29) .

فإذا كان له مثل هذا الفهم ؛ فأنى له أن يبلغ آفاق بلاغة القرآن ، وعمق معانية ، وبيان أساليبه ؟ وهل لمن لم يبلغ شأواً البلغاء وأهل الفصاحة والخطاب مكان لكي يحكم في الفصاحة ، ويطعن في أقدس كتاب حمل البلاغة كلها ، وأعجز الأولين والآخريين .

خلاصة وعناصر منهجية :

كان الرد - على إيجازه وقلة صفحاته - مطعماً بالمنهج العلمي الجدلي ، وفيه نتلمس بسهولة لغة الحوار المركز والذي يتخذ العقل والدليل طريقاً لإيضاح الحقائق والمفاهيم الكلامية واللغوية ، ولعل أبرز ما نستخلصه من جولتنا هذه :

1- الفصل بين النص القرآني وعملية الفهم ، والتي ربما يعترها من الذاتية والتعصب والجهل والعناد والمفاهيم المسبقة بتأثير من الاتجاه الديني أو المذهبي ، ما يحجبها عن الفهم السليم والوصول للحقائق .

2- حضور المنهج العقلي في نقاش مفهوم الإعجاز ، ولأن الإعجاز القرآني هو مستند النبوة الخاتمة ، ولا

بد من الاحتجاج بذلك ، صار العقل منوطاً بتلك المعجزة ، بخاصة أن (العقل) هو الذي يحتج به لدى كل إنسان في أي زمان ومكان ، فمعجزة القرآن تفرق عن باقي المعجزات أنها تخترق الأزمان والأماكن ، في حين أن المعجزات الأخرى تتطلب حضوراً وشهوداً مباشراً .

3- إعطاء لمحة تاريخية عن (معارضة القرآن محتوى ولغة) مما يمهد منهجياً وفكرياً للمعارضة المدعاة من قبل الكاتب ، وفي الوقت ذاته يبين خواء ادعاءاته ، وضعف طرحه ، وارتكازه على الإثارات الجوفاء ، الخالية من الدليل والمتانة الفكرية .

4- إيضاح مفهوم (الإعجاز البلاغي) ليبين أين تقع مزاعم وادعاءات الكاتب ، وأنه يجهل أوصاف القضايا في مسائل البلاغة والمعارضات الأدبية .

5- الإعجاز لكتب العلامة البلاغي ، مثل (الهدى إلى دين المصطفى) و (الرحلة المدرسية) يعد عرفاناً لمكانة البلاغي وأستاذيته ، وأمانة علمية في توثيق القضية علمياً وتاريخياً ، وفي الوقت ذاته شهادة لمكانة البلاغي في هذا الإطار .

6- الاحتجاج بكتب العهدين تكرر كثيراً في الرد ، وهذا أليق في الجدل مع الكاتب ، لأنه يعتبرها هي الأصح على القرآن ، إضافة إلى أن المقارنة بها تعطي متانة وقوة في الجدل ، خاصة أن الخوئي كان يعرض مضمون هذه الكتب على العقل الصحيح ، ويقارنها مع ما جاء في القرآن الذي يتوافق والعقل ، وهذا مما يختصر الطريق في عملية الإفحام والاحتجاج .

7- بشأن المعارضات التي علق عليها الخوئي ، اتضح مستوى الضعف والركاكة في المعارضة المدعاة ، وقد بين حينها أن المعارضين للقرآن لا بد في معارضتهم أن تكون مماثلة في كل المستويات للقرآن ، وعبر الخوئي عن ذلك بقوله : " أن يخوضوا في مواضع القرآن الكريم من الحقائق خوفاً ابتدائياً لا اتباعاً تقليدياً " (نفحات ص5) .

أما التلفيقات التي تشبه إيقاعات الآيات وأساليبها ، في أوهى أن يطلق عليها (معارضة) بالمعنى الأدبي واللغوي ، فضلاً عن افتقارها في المعاني والدلالات .

8- الحفاظ على لغة الحوار والود مع الأديان الأخرى ، وشاهد ذلك ما كتبه في ختام الرد مخاطباً

الكاتب : "وليعلم أصحابنا النصارى أنا لا نبتدء في هذه الأمور ، وإنما نتصدى لهد لصد بعض المغرورين عن عدوانهم بالأباطيل التي كثر بها الهياج في هذا العصر . ونسأل الله أن يهدي عباده إلى سواء السبيل ، والحمد لله أولاً وآخراً " (نفحات ص 46) .

9_ اقتصر صاحب الكتاب في نظرتة على قضية الإعجاز والبلاغة ، وهما قضيتان جوهريتان للقرآن ، ولم يرق تناوله كما سبقه من المعارضين الذين حفظ لنا التاريخ محاولات التي باءت بالخسران ، ولأنه يريد عبر هذه الادعاءات تشويه الإسلام في كتابه المقدس ، ويريد الإثارة لا الطرح العلمي ، لذا تحطم ما بناه وما لفته في أبسط رد وتناول ، ولم يألُ الخوئي جهداً لرد مزاعمه ، فكشف عن حقيقته وعن مبانيه وخلفياته ، وعن مسمى كتابه (حسن الإيجاز) والذي كان يقصد به أنه ببضع كلمات وعبارات موجزة سينقص أسرار بلاغة القرآن وإعجازه ، وما درى بأن عباراته تلك ما هي إلا لغو وهذيان قبال اللغة العالية والبلاغة السامية ، كما في قوله تعالى حينما حكى عن المعارضين الأوائل : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) [سورة فصلت 26] .

وتكثر المحاولات ، و (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّيْلِ بِرَأْفَةٍ وَاهِهِمْ وَاللَّيْلُ مُتِمٌّ نُورِهِمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [سورة الصف 8] .

10_ لم يكن ذلك الرد هو المحاولة الأولى للخوئي ، فقد أعاد طرح مسألة الإعجاز والبلاغة مرة أخرى في كتابه (البيان في تفسير القرآن) بنحو مكمل ، بمنهج عقلي ونقلي متين ، ولغة علمية ، وبيان بليغ .

وتأتي قصة هذا الكراس الذي كتبه الخوئي وهو في سن مبكرة ، أنه وقع بيده كتاب في سنة 1912م بعنوان (حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) لمؤلف مسيحي يدعى (نصير الدين الطافر) مطبوعة بولاق بمصر ، والكتاب كما هو واضح من عنوانه يتضمن هجوماً ملفقاً مليئاً بالادعاءات والطعن لتفنيد إعجاز القرآن ، والنيل من مكانته وقيمه عند المسلمين .

إشارات سابقة لباحثين :

وقد أشار لهذا الكتيب .

١- الشيخ عبد العظيم الزرقاني ، بقوله : " ... لقد اطلعتُ على رسالة خبيثة أسموها (كتاب حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) فوجدتها قد حملت من الأكاذيب والأراجيف ، ومن اللف والدوران ، أشكالاً وألواناً في الصحيفة الواحدة ... " (مناهل العرفان ، ج ٢/٣١٣) .

٢- كما رد عليه الشيخ محمد رشيد رضا عند تفسيره لسورة الفاتحة ، تحت عنوان (معارضة نصرانية سخيفة للفاتحة الشريفة)(انظر : تفسير المنار ١/٦٩) .

٣- وأشار المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني - صاحب كتاب (الذريعة) - لبعض الردود التي خرجت ، مثل :

الاحتراز في رد رسالة حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز : آقا محمد إبراهيم بن آقا رضا رئيس التجار الأصفهاني المشهدي . طبع في طهران سنة 1342هـ (انظر ج ١ص٢٨٤) .

خطوة الرد للإمام الخوئي :

وقد انبرى الخوئي لردع هذا التجرؤ ، الذي ينمّ عن جهل وقلة اطلاع في اللغة والبلاغة ، وقصور فهم في معاني الآيات القرآنية ، وكان رده - على حد تعبيره - تصدياً لـ "بعض المغرورين على عدوانهم بالأباطيل التي كثر بها الهياج في هذا العصر" (نفحات الإعجاز ص46) .

فشرع بمقدمةٍ أجمل فيها الحديث حول (عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثل القرآن) ، وألمح فيها لنقطة جوهرية في مسألة الإعجاز ، هي :

أن بلاغة القرآن التي تحدى بها العرب تنطوي على بعدين لا يمكن فصلهما ، هما :

١- المعاني .

٢- والألفاظ .

ولم يكن التحدي بالبلاغة في جانبه اللفظي والأسلوبي فقط ، فالبلاغة لا تطلق على الكلام في لفظه وأسلوبه فقط ؛ قال :

" لكنهم يعرفون [أي العرب] لا كغيرهم أن الذي يفتخر به ويتنافس فيه من ارتفاع قدر الكلام وبلاغته إنما يكون بمقدار مطابقته لمقتضى الحال الذي يتكلم فيه ، وجريانه على الوجوه اللازمة في ذلك ، لا بمجرد تزويق [تحسين] الألفاظ وتحوير العبارات ، وقد وجدوا القرآن الكريم يعطي كل مقام حقه من المطابقة لحقيقته ومناسبتها ... " ، لذا من أراد أن يعارض ، فعليه أن يخوض " في مواضع القرآن الكريم من الحقائق خوفاً ابتدائياً لا اتباعاً تقليدياً ... " (نفحات الإعجاز ص 4-5) .

ويهدف الخوئي من ذلك :

١- أن يبين للقارئ الوهم الذي تأسست عليه ادعاءات المؤلف ، ويكشف بذلك قصور فهمه للبلاغة ، طناً منه أن إعجاز القرآن كامن في عباراته وألفاظه ، ومن هذا يتضح ضعف المستوى العلمي واللغوي لصاحب الكتاب ، والقابلية الذهنية القاصرة عن فهم مراد آيات التحدي ، مثل قوله تعالى :

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا فَادْعُوا بِسُورَةِ مَن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [سورة البقرة 23] .

وقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) [قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَن اسْتَطَاعْتُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] [سورة يونس 38] .

وقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) [قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَطَاعْتُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] [سورة هود 13] .

وقوله : (فَلَا يَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [سورة الطور 34] .

فالمأمل في هذه الآيات ، سيلاحظ أنها استعملت مفردة (مثله) ، والمماثلة تكون في التركيب الكلي للكلام في المعاني والبيان .

٢- بلورة الإشكالية المنهجية المتكررة مع كل زمن ، فيمن يحاول أن ينال من القرآن عبر ادعاء التناقض فيه ، أو إثبات خلل ما في بلاغته ومعانيه ، أو تجاوز جوانب الإعجاز فيه لإنزال مكانته الدينية واللغوية .

فكل ادعاءات المؤلف هي عملية فهم ، وقد تعتري الأذهان عادة شبهات وموانع للوصول لمراد النص ؛ فكيف لو اجتمع فهم قاصر مع قابلية ضعيفة في اللغة ؟!

وقد كان الخوئي كثيرا ما يعلق على فهم المؤلف وذهنيته القاصرة عن أوضح القضايا العقلية واللغوية ، من ذلك :

١- " فإن توهّم (حسن الإيجاز) أن قد جاءوا بمثله [يعني عرب الجاهلية] واختفى علينا فقد أخطأ وجدانه (...) فاعتراف أهل اللسان بإعجاز القرآن حسبا دلّ عليه الوجدان أوضح دليل على إعجازه ، ومن لم يكن من أهل اللسان فهو عاجز عن إدراك ذلك فلا ينبغي له الخوض فيه ، بل يلزم عليه أن يتّبع أهل اللسان ولا يبقى هالكا في ورطة الجهل، أعادنا الله منه ومن الجهل بأنّ جاهلون والله الهادي إلى سواء السبيل " .

٢- " لا لوم على هذا الرجل إذا لم يعرف معنى البلاغة فتوهّم لنفسه أنّها عبارة عن تزويق الألفاظ وإن كان معناها فاسداً قبيحاً في مورده ، ومن تفحّم مثل تفحّمه جدير بأن لا يعرف أنّ البلاغة التي بها يعلو قدر الكلام ويتفاخر إنّه ما هي مطابقته لمقتضى الحال ... " .

٣- " هذا مع أنّ المعارض بمعارضته الرديئة لم يهتد إلاّ باتّباع أسلوب القرآن وتقليده " .

٤- " وأظنّ أنّ تعصّب (حسن الإيجاز) لا يدعه يفهم ذلك لكي يمدّق به فإنّ داء التعصّب عضال " .
(انظر ص 6 و11 و25 و33 من صفحات الإعجاز).

منهج رد الإمام الخوئي :

كانت خطة رده ونقده عليه في (8 نقاط) ، يمكننا إجمالها في محورين رئيسين ، هما :

١- شبهات في الإعجاز .

٢- شبهات في البلاغة القرآنية

تناول الخوئي شبهات هذه في النقاط (1 ، 2 ، 3 ، 6 ، 8) ، حيث تناول الإعجاز من النواحي التالية :

1- عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن . حيث ادعى المؤلف : (أن القرآن لم يدع عجز البشر والناس عن الإتيان بمثله ؛ إلا على سبيل المبالغة) .

فبين الخوئي بأن هذا الفهم لا يتماشى مع بدهة ما تعرض له القرآن للإعجاز ، حيث أورد ا [ذلك التحدي " في مقام الحجة والاستدلال ، وإثبات أنه [أي القرآن] كلام ا [ووحى منزل على نبيه المرسل صلوات ا [وسلامه عليه وآله ، ومن ثم صار عجز الشعراء والبلغاء - مع كثرتهم في تلك الأعصار - دليلاً قاطعاً على إعجازه " (نفحات ص8) .

وثمة فرق واضح بين لغة القرآن الصريحة في التحدي ، وبين ادعاء الكاتب (المبالغة) .

انظر صريح الآية من قوله تعالى : (قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [سورة الإسراء 88] ؛ لترى أن مقصودها بعيد عن معنى (المبالغة) الذي يزعمه الكاتب .

كما أنه تطرق لشبهة وقع فيها في قضية عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن ، حيث قاس القرآن بكتاب إقليدس من ناحية اشتراكه - على حد زعمه - من ناحية أن لم يأت أحد بمثله ممن قبله وممن بعده .

وهو بتلك الدعوى يريد إسقاط مكانة القرآن في معجزته ، في أنه لم يعجز البشر ؛ بل لأن أحدا إلى الآن لم يأت بمثله ، وربما سيأتي أحد ويأتي بمثله ، فرد الخوئي قائلاً :

" مع أن عدم الإتيان لا يستلزم العجز عنه ، لو سلم أن لم يأت أحد بمثله سلمنا ، ولكن الذي يقبح - عند العقل - على ا [تعالى إنما هو إظهار المعجز على يد الكاذب ، فلا يمتنع إظهاره على من لم يدع النبوة كذبا ، والقرآن إنما ورد في مقام الإعجاز والبرهان على النبوة ، فبمَ يرتبط هذا المقام بغيره؟! " (نفحات ص8) .

2- إنكار الإعجاز ممن التصق بالإسلام . وقد بين الخوئي بأن دلالة الإعجاز على الوحي هي من الأمور العقلية التي لا يضر فيها جهل أحد ممن انتسب للإسلام أو إنكاره .

خاصة أن القرآن اختص كمعجزة عن سائر المعجزات بظهوره لجميع من يعرف البلاغة في جميع الأديان ولجميع الأزمان ، بينما المعجزات السابقة مختصة بفئة محدودة في ذلك الزمان ؛ " غاية الأمر أنه بالنسبة إلى أهل اللسان بإدراكهم وبلا واسطة ، وبالنسبة إلى غيرهم بإخبارهم القاطع وإذعانهم المعروف " (نفحات الإعجاز 10) .

3- اقتصار الإعجاز في أنباء الماضي فقط .

وقد أوضح الخوئي أن هذه الدعوة واهية ، لأنه لو كان الإعجاز فقط في أنباء الماضي ، فإنه لا خصوصية للنبي في ذلك ، لأن أنباء الماضي متاحة لمن يسمع ويحفظ من أقوال المتناقلين والقصاصين في كل زمن .

ولعل ما جعله يقول ذلك حينما رأى القرآن يشترك مع الكتب السماوية الأخرى في نقل القصص ؛ لكن الخوئي بيّن بأن القرآن خالف تلك الكتب ، ومخالفته تعد تصحيحاً وتهذيباً ، لأنها صادرة عن وحي □ الذي لا تناقض ولا اختلاف في كلامه . (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ □ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [سورة النساء 82] .

وقد أتى الخوئي بأمثلة من قصص العهدين المحرفة ، وقارنها بما جاء في القرآن .

وعلة المقارنة لإبطال ما سماه بالأغلاط في القرآن فيما نقل من أنباء الماضي . وقد قسمه إلى قسمين :

أ / التناقض .

حيث ادعى أن قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً □ قَالَ آيَتُكَ أَسْتَأْذِنُكَ أَمْ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا □ وَاذْكُرْ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ عَشِيِّ وَالْإِبْرَاهِيمَ) [سورة آل عمران 41] ، مناقض لقوله تعالى : (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً □ قَالَ آيَتُكَ أَسْتَأْذِنُكَ أَمْ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) [سورة مريم 10] .

والأنجيل الثلاثة الباقية متفقة على أنه لم يبق في الأرض إلا يسيراً من آخر يوم الجمعة ، وليلة السبت ونهار السبت ، وليلة الأحد إلى ما قبل الفجر ؛ فأين تكون الثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ؟! فانظر أخريات الأنجيل في دفن المسيح وقيامه " (نفحات ص45) .

ب / مخالفة العهدين .

حيث توهم كذب القرآن مقارنة بما فيهما ، ليقينه بأنهما هي الكتب المنزلة للأنبياء . ثم بين بإيجاز :

" أن داخلية كتب العهدين تبطل كونهما كتب وحي وإلهام " (نفحات ص45) .

أي أن الناظر المتأمل في هذه الكتب المحرفة وما حوته من قصص وأخبار متناقضة ، وبعضها ينسب الكذب والانحراف للأنبياء كافٍ في أنها محرفة ، ولا يعتمد عليها كميزان لكي نقيس عليها ونحكم بها .

هذا عن شبهات الإعجاز .

المحور الثاني : شبهات في بلاغة القرآن /

وتوزعت في النقاط التالية : (4 ، 5 ، 7) . وتناول فيها :

معنى البلاغة في إعجاز القرآن ، وشبهاته الواهية في بعض بلاغاته .

ومن خلال ما استعرضه الخوئي من عبارات الكتاب ، تبين بأن تصورات المؤلف ومفاهيمه عن البلاغة لا تتناسب وأهل البلاغة واللسان .

فهو يقول في كتابه :

(يمكن عقلاً أن يأتي إنسان بأفصح العبارات وأبلغها وأحسنها نظماً وهي تحكم بأن [شرير] .

وأوضح الخوئي أن هذه المقولة تدل على عدم معرفة البلاغة ، فهو توهم أن البلاغة عبارة عن تزويق

الألفاظ وإن كان معناها فاسداً قبيحاً في مورده .

ويبدو أن هذا الوهم تسرب له من خلال ما في الكتب المحرفة لديه ، فقد أورد الخوئي نصوصاً من التوراة والإنجيل ، كان فيها المعنى فاسداً وقبيحاً ، عبر إلصاق فعل القبايح للأنبياء وتلفيق ما لا يليق بهم ، وقد نمق وأنق المحرفون هذه القصص لإخفاء معانيها المشوهة ، لكي يتقبلها العقل قدر الإمكان .

لذلك عمد الخوئي لعمل مقارنة بسيطة مع القرآن لتوضيح هذا الأمر . قال :

" فانظر إلى كلام الله في جميع موارد وفنونه المختلفة ، وانظر إلى براعته فيها وبلاغته المعجزة بمطابقتها لمقتضى الحال . وإن صدور هذه المقامات [يعني القصص المحرفة] وأمثالها من كتبه العهدين الرائجين لأدل دليل على كذب أولئك الكتبة " (نفحات ص13) .

بعدها أوضح أن الاستناد في صدق الرسول إلى الله هو من جهات شتى ، منها :

أ / عجز بلغاء العرب عن معارضة القرآن مع أنهم أهل الفصاحة والبيان ، وهذا كافٍ لأن يكون مصدر المعجزة إلهياً .

ب / إذا كان في ادعاء النبي ما هو مخالف للعقل كالكذب والدعوة للشرك ، وتناقض أقواله ودعواه ، فالمعجزة تنتفي في هذا الفرض ، فقول الكاتب بأن الله شرير يدل على عدم النبوة وعلى أن المدعي كاذب في دعواه .

وهناك الشواهد الأخرى الكثيرة الدالة على فهمه القاصر وجهله باللغة والبلاغة ، منها :

١- تشبته ببعض التراكيب العربية التي استعملها القرآن ، مثل : (وردة كالدهان) (صلصال كالفخار) والتي استعملها العرب من قبل . واعتبر ذلك استقواءً ، ليقلل من بلاغته .

فقال الخوئي رداً على ذلك :

" ولا يخفى أن القرآن نزل باللغة العربية ، هل يمنع عليه استعماله للألفاظ التي استعملها غيره من

العرب؟! وهل قال أحد : أن بلاغة القرآن وإعجازه إنما هو بمثل ألفاظ (وردة كالدهان) و (صلصال كالفخار) لكي يقال : إن هذا الإعجاز سبق به عنتره وأمية لو صحت النسبة لهما؟! " (نفحات ص42) .

وفي السياق نفسه تشبث أيضاً بما ينقله بعض علماء المسلمين من أخبار الآحاد في أن من القرآن ما نزل على لسان بعض الصحابة

فرد الخوئي عليه :

" أن ذلك لو صح لم يضر بكون القرآن وحياً ، لجواز أن تكون مصلحة الوحي والتشريع وحكمتها قد اقتضت أن ينزل الوحي بعد ذلك القول من الصحابي " (نفحات ص43) .

إضافة إلى تنبيهه إلى أنه لا يصح الاحتجاج بقضية إلا بما هو مسلم بها بين المسلمين ؛ وهذه مما لم يتسالم بها ، فضلاً عن نفي حدوثها من قبل جملة من المحققين .

٢- إبطاله ما توهم أنه دليل على عدم بلاغة القرآن ، وقسمه إلى قسمين :

أ / قسم جعل فيه ادعاءه دليلاً على قوله . وأتى فيه بشواهد ادعى التنافر فيها مثل قوله تعالى (بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ * مَا الرَّحْمٰنُ الرَّحِیْمُ) [سورة الحاقة 1 - 2] .

وادعى الغرابة في لفظة (الكوثر) ؛ لأن النبي فسر المراد على النحو الكلي ، فاعتبر ذلك غريباً ... وغيرها من الأمثلة . وأوضح الخوئي أن سوق هذه الإدعاءات تدل على قلة اطلاع في لغة العرب .

ب / قسم فيه دلالة على عدم فهمه للكلام . ومنه توهمه في مخالفة القياس في قوله تعالى (وَاللّٰهُ أَنْزَلَ نَبَاتَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ نَبَاتًا) [سورة نوح 17] . فقال أن القياس الصحيح هو : إنباتاً .

فرد الخوئي :

بأن المراد في دلالة الآية ليس المصدر ، إنما " المراد منه اسم العين لمساواة أحوال الإنسان لأحوال النبات في نموه وأطواره في البهجة والذبول " (نفحات ص22) .

٣- ومن قلة فهمه أيضاً مجاراته الرديئة لمعارضة القرآن عبر تنميقة اللفظي الأسلوبي ، طناً منه أن هذه المعارضة مثلية للقرآن ، وقد اكتفى الخوئي بالتعليق البسيط لأنها في حد ذاتها تدل على ضعفها .

٤- بعدها انتقل الخوئي ليعلق حول (التكرار في القصص) التي أشار لها صاحب الكتاب بزعمه أنه مناف للبلاغة فقال موضحاً ومبيناً : " وإن كان المعترض يتعرض لتكرار القرآن لقصصه ، فهل يخفى على ذي المعرفة محل ذلك من البراعة والبلاغة وبيان القدرة على إيراد القصة حسب مناسباتها بعبارات مختلفة كلها راقية في مقامها من دون تناقض ولا اختلاف جوهري ، لا كما وقع في الأناجيل من التناقض والاختلاف الجوهري الكبير الكثير في قصصها التي تكررت فيها ... " (نفحات ص28-27) .

٥- ومنه ادعاؤه ضعف التأليف والتعقيد في قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عِلْمًا عَِبْدَهُ الْكِتَابَ وَاللَّامِ يَجْعَلُ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا) [سورة الكهف 1 - 2] .

حيث توهم أن (قيما) حال من الكتاب ، والواو في (ولم يجعل) للعطف .

فأجاب الخوئي :

مع غفلته عن أنه لا لزوم في هذا التحكم ، بل تكون الواو حالية ، و (قيما) حالاً بعد حال ، أو حالاً من ضمير (له) . ومعنى القيم : كونه قائماً بأمر العباد في المعارف والشريعة والإرشاد والإنذار ، كما يقال : قيّم المرأة وقيّم اليتيم وقيّم القوم . (نفحات ص29) .

فإذا كان له مثل هذا الفهم ؛ فأنى له أن يبلغ آفاق بلاغة القرآن ، وعمق معانية ، وبيان أساليبه ؟ وهل لمن لم يبلغ شأو البلغاء وأهل الفصاحة والخطاب مكان لكي يحكم في الفصاحة ، ويطعن في أقدس كتاب حمل البلاغة كلها ، وأعجز الأولين والآخرين .

خلاصة وعناصر منهجية :

كان الرد - على إيجازه وقلة صفحاته - مطعماً بالمنهج العلمي الجدلي ، وفيه نتلمس بسهولة لغة الحوار المركز والذي يتخذ العقل والدليل طريقاً لإيضاح الحقائق والمفاهيم الكلامية واللغوية ، ولعل أبرز ما نستخلصه من جولتنا هذه :

1- الفصل بين النص القرآني وعملية الفهم ، والتي ربما يعترها من الذاتية والتعصب والجهل والعناد والمفاهيم المسبقة بتأثير من الاتجاه الديني أو المذهبي ، ما يحجبها عن الفهم السليم والوصول للحقائق .

2- حضور المنهج العقلي في نقاش مفهوم الإعجاز ، ولأن الإعجاز القرآني هو مستند النبوة الخاتمة ، ولا بد من الاحتجاج بذلك ، صار العقل منوطاً بتلك المعجزة ، بخاصة أن (العقل) هو الذي يحتج به لدى كل إنسان في أي زمان ومكان ، فمعجزة القرآن تفرق عن باقي المعجزات أنها تخترق الأزمان والأماكن ، في حين أن المعجزات الأخرى تتطلب حضوراً وشهوداً مباشراً .

3- إعطاء لمحة تاريخية عن (معارضة القرآن محتوى ولغة) مما يمهد منهجياً وفكرياً للمعارضة المدعاة من قبل الكاتب ، وفي الوقت ذاته يبين خواء ادعاءاته ، وضعف طرحه ، وارتكازه على الإثارات الجوفاء ، الخالية من الدليل والمتانة الفكرية .

4- إيضاح مفهوم (الإعجاز البلاغي) ليبين أين تقع مزاعم وادعاءات الكاتب ، وأنه يجهل أوصح القضايا في مسائل البلاغة والمعارضات الأدبية .

5- الإيعاز لكتب العلامة البلاغي ، مثل (الهدى إلى دين المصطفى) و (الرحلة المدرسية) يعد عرفاناً لمكانة البلاغي وأستاذيته ، وأمانة علمية في توثيق القضية علمياً وتاريخياً ، وفي الوقت ذاته شهادة لمكانة البلاغي في هذا الإطار .

6- الاحتجاج بكتب العهدين تكرر كثيراً في الرد ، وهذا أليق في الجدل مع الكاتب ، لأنه يعتبرها هي الأصح على القرآن ، إضافة إلى أن المقارنة بها تعطي متانة وقوة في الجدل ، خاصة أن الخوئي كان يعرض مضمون هذه الكتب على العقل الصحيح ، ويقارنها مع ما جاء في القرآن الذي يتوافق والعقل ، وهذا مما يختصر الطريق في عملية الإفحام والاحتجاج .

7- بشأن المعارضات التي علق عليها الخوئي ، اتضح مستوى الضعف والركاكة في المعارضة المدعاة ، وقد بين حينها أن المعارضين للقرآن لا بد في معارضتهم أن تكون مماثلة في كل المستويات للقرآن ، وعبر الخوئي عن ذلك بقوله : " أن يخوضوا في مواضيع القرآن الكريم من الحقائق خوفاً ابتدائياً لا اتباعاً تقليدياً " (نفحات ص5) .

أما التلفيقات التي تشبه إيقاعات الآيات وأساليبها ، في أوهى أن يطلق عليها (معارضة) بالمعنى الأدبي واللغوي ، فضلاً عن افتقارها في المعاني والدلالات .

8_ الحفاظ على لغة الحوار والود مع الأديان الأخرى ، وشاهد ذلك ما كتبه في ختام الرد مخاطباً الكاتب : "وليعلم أصحابنا النصارى أنا لا نبتدء في هذه الأمور ، وإنما نتصدى لهد لصد بعض المغرورين عن عدوانهم بالأباطيل التي كثر بها الهياج في هذا العصر . ونسأل الله أن يهدي عباده إلى سواء السبيل ، والحمد لله أولاً وآخراً " (نفحات ص 46) .

9_ اقتصر صاحب الكتاب في نظره على قضية الإعجاز والبلاغة ، وهما قضيتان جوهريتان للقرآن ، ولم يرق تناوله كما سبقه من المعارضين الذين حفظ لنا التاريخ محاولات التي باءت بالخسران ، ولأنه يريد عبر هذه الادعاءات تشويه الإسلام في كتابه المقدس ، ويريد الإثارة لا الطرح العلمي ، لذا تحطم ما بناه وما لفته في أبسط رد وتناول ، ولم يألُ الخوئي جهداً لرد مزاعمه ، فكشف عن حقيقته وعن مبادئه وخلفياته ، وعن مسمى كتابه (حسن الإيجاز) والذي كان يقصد به أنه يبضع كلمات وعبارات موجزة سينقص أسرار بلاغة القرآن وإعجازه ، وما درى بأن عباراته تلك ما هي إلا لغو وهذيان قبال اللغة العالية والبلاغة السامية ، كما في قوله تعالى حينما حكى عن المعارضين الأوائل : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالرَّغْوِ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) [سورة فصلت 26] .

وتكثر المحاولات ، و (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّيْلِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّيْلُ مُتِمِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [سورة الصف 8] .

10_ لم يكن ذلك الرد هو المحاولة الأولى للخوئي ، فقد أعاد طرح مسألة الإعجاز والبلاغة مرة أخرى في كتابه (البيان في تفسير القرآن) بنحو مكمل ، بمنهج عقلي ونقلي متين ، ولغة علمية ، وبيان بليغ .